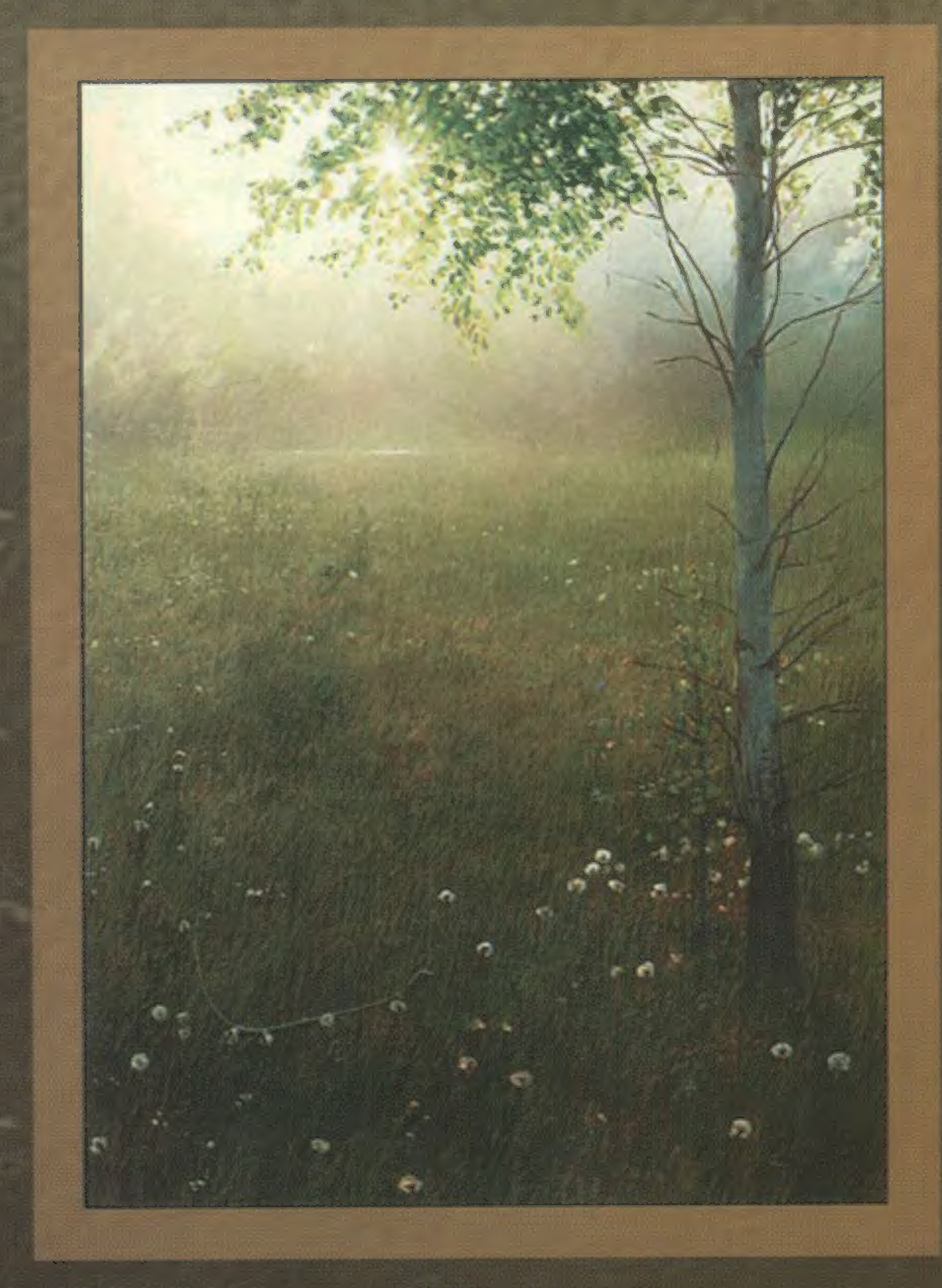
د. علي الطرابلسي

مجموعة قصصية

رائحة الخريف والصيف

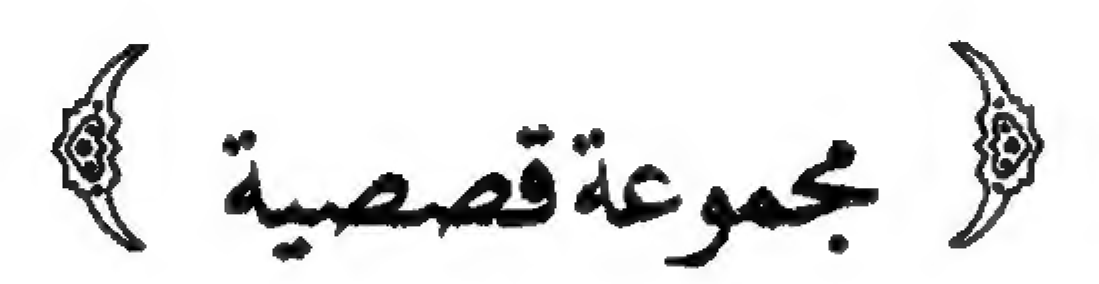


دار رسلان

رائحة الخريف والصيف

د. علي الطرابلسي

رائحة الخريف والصيف



الدكتور

علي الطرابلسي

رائحة الخريف والصيف

تأليف: د. علي الطرابلسي

سنة الطباعة: ٢٠١٠ .

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الترميز الدولي: ISBN: 978-9933-439-30-9

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

❁ إهداء ❁

إلى ابراهيم زهرة المستقبل....

وإلى والدي وعمي ......

رحمكما الله أبتاه وعمّاه...

لقد كنتما نقيين جسداً وروحاً برغم غبار الحياة ودخان الشقاء...

أنار الله قبريكم...

د. علي الطرابلسي

مقدمة

أصدر القاص الدكتور علي الطرابلسي ـ قبل سنوات ـ مجموعته القصصية الأولى "النورس" في العام ٢٠٠٤، وكانت تبشر بولادة قاص جديد صاغ قصصه من لوعة سنوات غربته الطويلة عن بلده. ومنذ ذلك الحين لاذ بذاته عاكفا على نسج قصص أخرى يستكمل بها مشواره الذي بدأه، دون أن يتعجل في نشر ما يكتب فهو حريص على أن يقدم نفسه بذات الصورة وربما أفضل من تلك التي ظهر عليها في "النورس".

كما في مجموعته الأولى يطل علينا القاص علي الطرابلسي بمجموعته الثانية "رائحة الخريف والصيف" فيضع بين يدي القارئ بعضا من قصصه التي نسجها من قلب نابض بحب الحياة، مفعم بالأمل، ووجدان يضج بالمشاعر الإنسانية النبيلة في لغة شفافة موحية وبأسلوب رشيق، فيقدم من خلالها صوراً لا تخطئها العين غير أن

القاص أعاد صياغتها لتتحول إلى عمل أدبي ينتقل بالآتي إلى رحابة العالم.

كان البحر والقرية هما القاسم المشترك في مجموعة الطرابلسي هذه مثلما كانا في مجموعته الأولى، فرغم نزوح القاص عن قريته الصغيرة غير أنها مازالت ماثلة أمام عينيه يتنفس بهوائها ويشم عطر صنوبرها ويسمع صوت نسائها ولغط أطفالها، فالمدن التي نفتح عيوننا عليها ونمضي طفولتنا بها تأبى أن تفارقنا، أو تغادر ذاكرتنا، فلا نملك إلا أن نستعيدها حلماً جميلاً، حين يمر بنا ما يذكرنا بها من قريب أو بعيد، وهنا تبدأ مهمة القاص حين يستمد موضوعات قصصه من ذلك الواقع الذي مضى، فيعيد صياغته من جديد بأسلوب أدبي يتيح للقارئ أن يتفاعل معه.

تضم مجموعة القاص علي الطرابلسي الجديدة (رائحة الخريف والصيف)، إحدى عشرة قصة تراوحت بين قصيرة في أقل من صفحة وطويلة في عدة صفحات، وسنحاول هنا التعرض لهذه المجموعة وما تتميز به. فمن

خلال قصصه تتضح معالم المجتمع العربي التونسي وهو كغيره من المجتمعات العربية، حيث نجد التلاحم بين أفراده، هذا التلاحم الفطري الذي يعبر عن قيم عربية أصّل لها المجتمع حتى صارت مثل قانون يحكم العلائق بين الناس.

يستخدم القاص ضمير المتكلم في معظم قصصه، فيكون هو الراوي والقاص معا، فهو يبدأ قصة (حبيبة): "كانا أخوين، أبي له الأولاد، وعمي له البنات....." و(حبيبة) اسم البقرة التي اشتراها له أبوه وتعلق بها بعد أن شغف ببقرات عمه. ينقل الكاتب ما بذاكرة الطفل عن ذلك اليوم "عندما ابتسم الفجر اللؤلؤي، بدأت رحلتنا عبر طرق تلوّت بين حقول العنب والسفرجل، ثم قطعنا سفوحاً ووديانا وحين ابتعدنا عن القرية، وعبرنا الطّريق السّاحلي، ثم سكّة القطار، عانقنا على مدى البصر مرج تموّج زهوراً، وتناثر فوقه ضباب خفيف، سرعان ما بدّدته شمس آذار، وكان الأفق يحتضن طيوراً شكّلت أسرابها مظلاّت بلون بنّي،

وعبق المكـان بنسيم منعش حلو امتزج بشذا الصّنوبر وأنفاس البحر، حتّى تصوّرت بأنّ الحياة أشرقت على الدنيا لأوّل وهلة من هذا المكان."

مقدمات موحية

يهتم القاص علي الطرابلسي كثيراً بمفتتحات النص ذلك أن "كل بداية تمثل التعبير عن موقف ما، وخوفاً من حكم القارئ علينا يجب بناءاً على ذلك إثارة اهتمامه وأسره. يلعب المدخل دوراً استراتيجياً حاسماً لأنه ينبغي أن يبرر النص ويوجهه ويقدم إشارات إخبارية وأسلوبية، ويبين كوناً تخيلياً ويوفر معلومات عن الحكاية المروية"[1]، وهكذا فإن بدايات قصصه تمهيد جيد للقصة نفسها، ففي قصة (بعد منتصف الليل) يكتب (انتصف الليل، والمطر مازال يئِزُّ عنيفاً ومع انقطاع التيار الكهربائي، طُمِسَت معالم المدينة، وبدت جبال طوّقتها في البُعد كأطواد من الفحم المُبَلّل. وها هو ذا لاهثاً مبتلاً، وقد ازرقّت شفتاه من لسعات الزمهرير، ينحدر من شارع قَفرٍ، ليلوذ بسقف محطة قطار، دلّت عليها لوحة فسفورية عملاقة عُلّقت على الواجهة.

---

1 في إنشائية الفواتح النصية ـ اندري دي لنجو، ترجمة: سعاد بن ادريس نبيع، دورية نوافذ ١٠/١٩٩٩

وهكذا فإن زخماً من الأفعال والانفعالات تتسال في ذهن القارئ وهو يسترسل في قراءة القصة حتى يبلغ نهايتها.

أما في (عولمة) وموضوعها واضح من اسمها، فإن القاص يبدأ قصته بالتأكيد على الأصالة (مدينة الحمامات) كمعادل لما تتعرض له الثقافة العربية من هجمة رامزاً بهم إلى السياح الذين يخفي بعضهم أهدافاً غير سياحية، وهو رمز لكل غريب دون أن يعني ذلك رفضنا للزائرين" ثغر مدينة الحمّامات يشرق بابتسامة عذبة، والقلعة العتيقة على الساحل تبدو شامخةً وهي تحتضن مقهى "سيدي بوحديد". المقهى غص بالسيّاح الذين لفحت شمس البحر الأبيض المتوسط جلودهم، فبدت حمراء مثل أسماك السالمون، فيما تألّقت عيونهم الزرقاء بفيض من البهجة والسعادة." وهكذا يضع الكاتب قارئه أمام مسؤوليته في هذا الموقف. ونجد أن مفتتحات النصوص لم تأت جزافاً، وإنما هي محسوبة بعناية حتى وإن لم يكن الكاتب يقصد ذلك في وعيه

لكنه يعبر عن لا وعي إبداعي لابد أن يتميز به كل مبدع.

يمتلك الدكتور الطرابلسي قدرة كبيرة على التكثيف في قصصه، فهو يضخ في سطرين أو ثلاثة أسطر كما هائلا من المعلومات حتى تقدح الصورة في ذهن المتلقي نابضة بالحياة مفعمة بالحيوية. في قصة (خريف راكد) نقرأ هذه السطور لنؤكد ما ذهبنا إليه "لا ندري كيف وُلِدَ الخبر، وكيف انتشر، وهل هو حقيقة.. أم محض افتراء وشائعات؟ ولكنه كان كافياً لتحريك حياة راكدة جثمت على صدر قريتنا الصغيرة طوال أشهر الخريف. في هذا الفصل بالذات، لم تهب عواصف هوجاء تنسف بهبوبها أسقف البيوت الطّينيّة، أو تُعَرِّي الأشجار من أوراقها الصفراء. لم يهطل المطر مدراراً، حتّى تجري السيول، وتجرف معها جثث الماشية التي نفقت في الصيف. لم نرَ أسرابَ الخطّاف المهاجر في سماء القرية.. لم يمت أو يتزوج أحد. لا بل لم يُولَدْ طفلٌ، أو حملٌ، أو عجلٌ.. ولم يسقط حمارٌ هرمٌ، أو جَديٌ

مشاكسٌ من جُرفٍ هاوٍ. إذا باختصار لم يحدث شيء ذو بال يستدعي اهتمام أهل القرية."، فما إن ينتهي القارئ من هذه العبارات حتى يكون قد عرف الكثير عن حياة حافلة تختفي خلف هذه السطور. يتكرر هذا الأمر في معظم قصصه ولا نود إيراد نصوص أخرى حتى لا نفسد على القارئ متعة القراءة.

يتمتع القاص الدكتور علي الطرابلسي بقدرة كبيرة على التصوير في كلمات مختزلة لكنها موحية، يوظفها في التمهيد للقصة، وهذا التصوير ليس ترفاً ولا هو فضلة لا فائدة منها، لكنه تمهيد لمضمون القصة التي لابد من التمهيد لها بمثل هذا الوصف وإلا تحولت إلى مسرحية وهي فن لا يحتاج إلى عبارات استهلالية.

إن هذا الأسلوب يؤهله إلى الولوج إلى عالم الرواية، فهو ينشغل بتفاصيل صغيرة تستكمل الصورة التي يريد إيصالها إلى القارئ، وهذا الأمر سيكون مفيداً أكثر لو كان العمل روائياً لا قصصياً، فبناء الرواية يحتاج إلى مثل هذه التفاصيل، لكن القاص وهو يستخدمها في

قصصه لا تبدو مقحمة أو ناشزة بقدر ما تبدو جاءت ضمن سياقها الطبيعي، فلغته الموحية تجعل من تلك التفاصيل منمنمات جميلة تزيد "اللقطة" صدقاً وبهاءً.

في (أجنحة شفافة) يستحضر القاص في هذه القصة وفي القصص الأخرى تلك الأماكن التي أمضى فيها طفولته فرسخت في الذهن تأبى الزوال وبلغة ساحرة تتجسّد أمامنا قرى ومدن تنبض بالحياة.

وتتقطع الذكريات حين يرن هاتفه ليجد على الطرف الأخر صديقه الذي يقيم في ولاية أمريكية أخرى يخبره عن إعصار مدمر سيضرب ولاية أوكلاهوما عنده يتبدد حلمه بمدينته الأولى". رُحتُ أحملق في الشّاشة مُصغياً في سكون إلى أنين الغربة.. وقد اختفت الصورة. .. وطارت بأجنحةٍ شفّافة."

في (العين الزرقاء) تتجلى تلك المشاعر الشعبية التي لا تكاد تخلو منها قرية عربية بما تحمله من ميثولوجيا طوطمية للتعبير عن الخوف من المجهول، وهنا يعبّر أهالي القرية عن خوفهم من انفجار بركان جبل العين

الزرقاء، حيث ينشغل أهالي المنطقة رجالاً ونساءً بالتحضير لهذا الموقف بينما ينشغل الأطفال بألعابهم غير عابئين بما يجري حولهم. كان احتفالاً كبيراً انطلق الموكب، غاص في ظلال الأشجار العملاقة التّي حفّت الطريق، وصدى الطبالين وأصوات الرجال: "يا لطيف تلطف بينا يا لطيف" تزداد حدّة، حتى انتهينا إلى مقبرة سيدي عبد العالي، وأطلّت القبور الطّينيّة بين الحشائش اليابسة. هناك توقّف الموكب اللاهث قليلاً. أوقدتْ بعض النساء شموعاً كنّ قد حملنها معهّن، وضعنها أمام المقام المرشوش بالجير الأبيض، ثم اتّخذ الموكب سبيلاً عبر ممرّ ضاق بين أشجار الصّنوبر حتى تركنا الغابة، وبدأت المسالك الترابيّة تتلوّى في اتجاهات شتّى، وكأنها أفاع غبراء. عندئذ صاح الحاج قدّور وهو يلوّح بعمامته البيضاء: "إنّني أرى الجبل من هنا. هذا الطريق أقرب سبيلاً إلى العين الزرقاء"، ثم أشار يميناً فتبعناه.. بلا تردّد."

في (رائحة الصيف) تدور القصة حول الوحدة وحول

علاقة إنسانية جمعت بين شيخ يعيش قرب البحر وسائق شاحنة اعتاد المرور به بين وقت وآخر، وفي إحدى المرات يمر السائق فلا يجده، ومن خلال القصة نكتشف موت الشيخ الذي توهم رؤية حوريات الماء " جلس على حافة الشاطئ، خلع أسماله البالية، ثم أخذ يغرف الماء بيديه، ويُبَلّلُ جسداً أنهكه التعب، حتى أحسَّ بخدرٍ لذيذٍ يسري في عروقه، فبدأ تارة يلهو بزبد الموج الإسفنجي، وتارة أخرى يسبح منتشيًا فوق الموج الناعم، وقد ملأ البحر رئتيه بضوع رذاذ الليمون، حتى أنه حين فاضت به النَّشوى، وقف بين الأمواج مأخوذاً بسحرِ ألوانٍ قُزَحيَّة تبدّت لناظريه، وكان البحر من حوله يتلألأ شفافاً تحت شمس حزيران. آنذاك خُيِّلَ إليه أنه يرى عرائسَ البحر وقد تخلّصن من زعانفهن، فاتناتٍ، مُبتَسِماتٍ، يرقُصن فوق الموج أَنصافَ عرايا، ويمددن له أيادٍ خضَّبتها الحنَّاء وماء الورد. مدَّ يده، مددن أيديهن في حُنُوٍّ، اقترب رويداً، رويداً، ابتعدن قليلاً في خجل فطري ودلال، تبعهن في شوق ولهفة، ركب الموج.. حلّق بأجنحة بيضاء ليمسك بضفائرهن، فتفرقن أشتاتاً عند نهاية

تمازج السماء بالبحر، ولم تقبض كفّاه إلا على حفنةٍ من الماء المالح."

أما (الثعلب) فهي حكاية شعبية عن بعض الناس "الثعالب" الذين يمارسون النصب على الآخرين مستغلين طيبة الآخرين وبساطتهم، والقصة جميلة في تفاصيلها ونتائجها.

إن لغة القاص علي الطرابلسي تتألق مع مضمون النص لتبلغ مستويات شعرية عالية مستفيدة من الأسطورة الشعبية (العين الزرقاء) بل وحتى من الواقع الذي يتحول بيديه (بلغته) إلى عالم سحري كونه لم يعد موجودا (أجنحة شفافة).

ظهيرة بائسة: في (ظهيرة بائسة) يستدرجنا القاص من خلال تصويره لمدينة نابل السياحية إلى مشهد العربة السياحية بحصانيها الأبيضين "كانت العربة مربوطة إلى حصانين أبيضين، وقد طُليت في تناسق باللونين الأحمر والأخضر، وزُيِّنت عجلاتها بنقوش ذهبيّة أضفت عليها ألقاً بديعاً، فيما حَفّت مقعدها، باقات ورود اصطناعيّة

لجذب السيّاح. بعد أن أوقف الحوذيُّ عربته، ترجّل منها، أخرج منديلاً وراح يمسح به وجهه، ويزيح العرق عن عينيه، ثم أخذ يحدِّق في طريق الشارع الفسيح"، ثم نكتشف في آخر العمل أن موضوع القصة عن جناية هذين الحصانين على بائع الورد حين أكلا وروده وهو ما دفعه إلى الاشتباك مع الحوذي فتجمع الناس عليهما.

في (الخبز الدامي) لا ينطلق الكاتب بموقفه من بطل القصة الذي هو والده من حنان أبوي وحسب بقدر ما يعبر عن موقف فكري من الطبقة العاملة يتضح من خلال النص، فالعامل يظل يكدح سنوات عمره من أجل عائلته دون أن يحصل على ما يوازي جهده. يبدأ القاص قصته بفعل يدل على الحركة والتعب "يَدفع العربة الحديدية، تنزلق على القضبان الرفيعة، تشتكي القدمان النازفتان، تسحق العجلات قُطَيرات الندى التي تشبثت بالسكّة الصدئة منذ الفجر، تُصدر القضبان المستكينة أنيناً جارحاً يتمازج مع همومه الخرساء، فيتقاسمان الألم معاً. تُطلُّ الصخور الدّاكنة ـ التي

جمعها بعد أن مزقت شظايا الديناميت جسد الجبل ـ برؤوسها من جوف العربة كصغار الكانغارو، ويدفع الجسد المكدود تلك الكتلة المعدنية من قمة الجبل، حتى تتلقّف فوهة معمل الجير القابع عند السفح كل ما فيها، وتطحنه بشراهة. هكذا كان يومه وجزء من الليل" . يلتفت القاص إلى الجانب الإنساني في شخصية العامل الذي يقاسي من الحرمان، فيعبر عن أمنياته التي لم تتحقق رغم بساطتها، إنه السعي الدائم للإنسان للشعور بآدميته " كم كان يودُّ وهو يدفع عربته والعرق يتساقط مثل حبيبات فضية، أن يستريح قليلاً ليداعب حملاً يقضم زغب العشب بفرح، ويقفز طليقاً عند الطريق الذي تلوَّي حلزوناً صاعداً الجبل. كم تمنّى أن يجلس ويتأمل عبر سياج الجنائن المتناثرة على سفوح الجبال المحاذية، أشجار الرّمان والسفرجل حُبلي بالثمر والطير، بينما قُزحٌ يدفع الغيوم جانباً، ويلهو برسم قوسٍ في السماء. رباه ما أجمل أن يتوقف ليتأمل اليد والفرشاة والألوان"، هذا الأمر لا يتحقق ما دام المسيو لاباريز الذي لا هم له غير جني المال على حساب تعب هؤلاء العمال،

وتبديده على ملذاته، فهو "سوطٌ يلسع الرقاب، وسبابه الجارح ثعبانٌ أرقطٌ يتعقّب كل من توقّف عن العمل".

والعمل صرخة بوجه من يستغل الآخرين دون أن يقدر تعبه، مثلما هو رثائية جميلة لأب حرم نفسه أفنى حياته في سبيل أولاده.

لا يمكن اعتبار الكاتب محايداً فيما يطرح من موضوعات فلابد أن يكون له موقف، ومن بين مواقفه التي تتضح من خلال قصصه، موقفه من الفقراء وانحيازه إلى الطبقة العاملة، ففي "الخبز الدامي" ينحاز القاص إلى الطبقة العاملة من خلال رسم صورة موجعة لعذابات العمال من خلال والده الذي أفنى حياته بالعمل في المناجم. وفي (عولمة) يدافع عن تراث أمته الذي بات نهباً للآخرين، وفي (الثعلب) يرفض كل القيم غير إنسانية، وهكذا فإن القاص يطرح فكراً غداقاً بالأدب أو قل أدباً يحمل فكراً ووعياً.

الدكتور باسم الياسري

اديب وناقد عراقي

ظهيرة بائسة

كانت شمس الظهيرة تَصُبُّ سعيرها اللاهب، وأنا أجلس في مقهى بشارع الحبيب ثامر بمدينة نابل[1] أداعب بين يديَّ كوباً من عصير الليمون الطّازج، وأراقب الشارع الذي بدا مقفراً إلاّ من بعض المارّة، عندما همّ حوذيّ بإيقاف عربته تحت صفٍّ من الأشجار، حفّت الشارع.

كانت العربة مربوطة إلى حصانين أبيضين، وقد طُليت في تناسق باللونين الأحمر والأخضر، وزُيِّنت عجلاتها بنقوش ذهبيّة أضفت عليها ألقاً بديعاً، فيما حَفّت مقعدها، باقات ورود اصطناعيّة لجذب السيّاح. بعد أن أوقف الحوذيُّ عربته، ترجّل منها. أخرج منديلاً

---

1 نابل: مدينة سياحية بتونس.

وراح يمسح به وجهه، ويزيح العرق عن عينيه، ثم أخذ يحدّق في طريق الشارع الفسيح.

طال وقوفه، أوشك صبره أن ينفذ، ولما تأكّد له خُلوّ المكان من السيّاح، قفز إلى العربة ثانية، وتربَّع فوق مقعدها، متثائباً في ضجر، ثم ما لبث أن استرخى فوق المقعد الوثير، واستسلم للنوم، فيما كان جواداه يدقّان الأرض بحوافرهما طرداً لذبابٍ مشاكس، لم تتوقّف لسعاته الحارقة في هذا اليوم القائظ من حزيران.

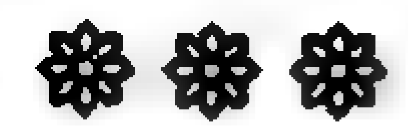
لم يمض وقت طويل حتى ظهر شاب في مقتبل العمر، ارتسم التعب على قسماته، وهو يحمل فوق رأسه سلّةً حيكَت من سعف النخيل، وأطلّت منها باقات ورود وفلّ، نُسِّقت بعناية فائقة، اقترب الشاب من العربة، ثم وضع سلّة الزهور فوق الرصيف، على بعد خطوات أمام الحصانين، واحتمى بظل دكّان مجاور أطلَّ على الشارع. جلس على الأرض وأسند ظهره إلى الجدار بعد أن تحرّر من نعليه ثم أغمض عينيه، واستسلم لإغفاءة لذيذة.

لا أذكر كم مرَّ من الوقت، قبل أن تطلَّ ثُلَّة من السيَّاح بملابسهم الصيفية الأنيقة من طرف الشارع البعيد. حينها كان الحوذيُّ قد أفاق من غفوته. انفرجت أساريره عند رؤيتهم، افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة، وبدأ يُمَنِّي النفس بجولةٍ رائقة في شوارع المدينة، وحفنة من نقود تسكن جيبه الخاوي.

اعتدل الحوذيّ في جلسته، وأمسك رسن حصانيه، ثم بدأ يصرخ محاولاً تهدئتهما من التململ ودقّ الأرض. آنذاك أفاق بائع الزهور، ففرك عينيه، وأصلح من هيئته وهندامه قبل أن يُصوِّب نظرة خاطفة إلى سلّة زهوره، ثم يعود مركزاً بصره عليها.

ألجمته المفاجأة. فغر فاه واتسعت عيناه وتلألأت فيهما دمعتان حينما نقل بصره من السلّة الخاوية إلى الحصانين، إلى الحوذيّ، ثم انخرط في بكاءٍ حاد، قبل أن ينتفض فجأة كإعصار، ويقفز بضع خطوات إلى الأمام ليجذب الحوذيّ من عربته، ويلتحم معه في عراك عنيف مطيحاً به أرضاً وسط صراخ مجلجل.

آنـذاك، كـانـت ثُلّة الـسيّاح قـد وصلت إلى مكـان الرجلين، توقّفت لبرهة حول الجمهور الذي أحـاط بهمـا، واكتفت بالابتسام، ثم تابعت سيرها، فيمـا كـان أحـد الجوادين يهزّ رأسـه، والآخـر يشير بخطمـه إلى الـسماء، ووريقـات خـضراء وبـتلات ورود حمـراء تتـساقط علـى الرصيف الملتهب.



الخبز الدّامي

يَدفع العربة الحديدية تنزلق على القضبان الرفيعة، تشتكي القدمان النازفتان، تسحق العجلات قُطَيرات الندى التي تشبثت بالسكّة الصدئة منذ الفجر، تُصدر القضبان المستكينة أنيناً جارحاً يتمازج مع همومه الخرساء، فيتقاسمان الألم معاً. تُطلُّ الصخور الدَّاكنة ـ التي جمعها بعد أن مزقت شظايا الديناميت جسد الجبل ـ برؤوسها من جوف العربة كصغار الكانغارو، ويدفع الجسد المكدود تلك الكتلة المعدنية من قمة الجبل، حتى تتلقّف فوهة معمل الجير القابع عند السفح كل ما فيها، وتطحنه بشراهة، هكذا كان يومه وجزء من الليل.

أربعون عاماً والغبار يتشابك مع فيض دخانٍ أزرق، ويتمددان كفناً على جسد الجبل المبقور، ثم يعانقان السحاب، وإذا النهار مرآة مغبرة. أربعون عاماً رتيبة وهو

يتقاسم مع رفاقه رغيفاً مغموساً بالعرق ورائحة البارود. أربعون حولاً شُيّدَتْ فيها قصور فارهة، ونبتت بيوت ملأها الدّفء، بينما كانت سُحب الغبار البيضاء تحاصر نهاره، وتحول بينه وبين أن يرى أشجار الصنوبر تتوهّج بسنا الفجر، أو يتأمل قلائد الياقوت تُزيّن ذرى بوقرنين[1] وقت الغروب.

كم كان يودُّ وهو يدفع عربته والعرق يتساقط مثل حبيبات فضية، أن يستريح قليلاً ليداعب حملاً يقضم زغب العشب بفرح، ويقفز طليقاً عند الطريق الذي تلوّى حلزوناً صاعداً الجبل. كم تمنّى أن يجلس ويتأمل عبر سياج الجنائن المتناثرة على سفوح الجبال المحاذية، أشجار الرّمان والسفرجل حُبلى بالثمر والطير، بينما قُزحٌ يدفع الغيوم جانباً، ويلهو برسم قوسٍ في السماء. رباه ما أجمل أن يتوقف ليتأمل اليد والفرشاة

---

1 جبال بوقرنين: جبال بمدينة حمام الأنف بتونس تطل على البحر. اقيم على جبل منها مصنع للجير والإسمنت توقف عن العمل منذ عدة سنوات.

والألوان، لكن أنّى له ذاك، وغَضَبُ "مسيو لاباريز"[1] سوطٌ يلسع الرقاب، وسبابه الجارح ثعبانٌ أرقطٌ يتعقّب كل من توقّف عن العمل.

كم كان يحلم بأن يستيقظ ذات فجر شفاف، فلا يرى الغبار، ولا الصدأ، ولا مسيو لاباريز، حتى يتسلّق الجبل إلى القمة، فيما جسده المغسول بالعرق يُهدهده النسيم البارد، ليستنشق عبير الصنوبر وضوع أزهار البراري، ويبقى هناك حتى يراقب الشّمس وهي تغرب مثل عروس تتمطى بثوبها الأرجواني فوق صفحة البحر.

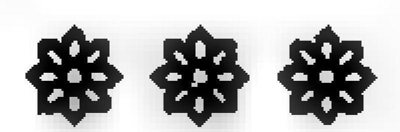
أحاسيس فطرية صافية، وأمنيات دافئة لم تُشرق، وإن كانت تُومض من حين لآخر، ولكن لا ضير، فقد كان يرى قناديل تبزغ في زوايا البيت، وخبزاً وزيتوناً يدفع السَّغب عن سبعة بطون، وذاك كان نبع رضاً صافٍ سكن قلباً حنوناً.

---

1 لاباريز: رئيس العمال. كان فرنسياً لأن المعمل كان تابعاً لشركة فرنسية.

أمّا اليوم، فها هو ذا مصنع الجير مهجوراً كبيت عنكبوت عتيق، وبقايا القضبان الصدئة ما زالت مغروزة في مكانها. وها هو ذا الآن ـ وقد اقترب من عامه السبعين ـ مُمَدَّدٌ بيننا، جسدٌ نحيلٌ هدّه الداء، وعينان باهتتان بلون الرماد ترتطمان بجدران العتمة، وأنفاسٌ واهنة تتردّد داخل رئتين ثقبهما الغبار، وعلبة فانتولين[1] نصف فارغة مُلقاة بالقرب من وسادته.

(رحمك الله أبتاه. لقد كنت نقياً جسداً وروحاً)



1 فانتولين: دواء يستخدم لمرضى الربو.

خريف راكد

لا ندري كيف وُلِدَ الخبر، وكيف انتشر، وهل هو حقيقة.. أم محض افتراء وشائعات؟ ولكنه كان كافياً لتحريك حياة راكدة جثمت على صدر قريتنا الصغيرة طوال أشهر الخريف. في هذا الفصل بالذات، لم تهب عواصف هوجاء تنسف بهبوبها أسقف البيوت الطّينيّة، أو تُعَرِّي الأشجار من أوراقها الصفراء. لم يهطل المطر مدراراً، حتّى تجري السيول، وتجرف معها جثث الماشية التي نفقت في الصيف، لم نرَ أسرابَ الخطّاف المهاجر في سماء القرية.. لم يمت أو يتزوج أحد. لا بل لم يُولَدْ طفلٌ، أو حملٌ، أو عجلٌ.. ولم يسقط حمارٌ هرم، أو جَديٌ مشاكس من جُرفٍ هارٍ. إذاً باختصار لم يحدث شيء ذو بال يستدعي اهتمام أهل القرية.

لذلك عندما حلّقَ هذا الخبر بأجنحته السوداء في سماء القرية، أصبح القرويون رجالاً ونساءً وأطفالاً يتهامسون بأصوات عقلها الفزع، بأن كلباً مسعوراً شرساً يجوب أطراف القرية. ما لونه؟.. ما شكله؟.. وأين شُوهِدَ أوّل مرّة؟..

اختلفت الروايات.. بعضهم أكّد رؤيته بين الهضاب القريبة.. الآخر أشاع بأنه لُمِحَ يَتَلَوَّى بين الأزقة عند الغسق..

أما الرّعاة وما أكذبهم، فأقسموا بأنهم سمعوا نباحه المرعب داخل إحدى الكهوف عند أطراف الجبل.. وهكذا لم تتفق الآراء حول هذه التفاصيل.

أصبح القرويون لا يتنقلون إلاّ في جماعات صغيرة. لا ترى أحداً يمشي وحده، سوى حمودة الشلبي بهلول القرية، والذي لم يكن يأبه بشيء. أمسينا نأوي إلى بيوتنا قبل غروب الشمس. فتخلو الأزقة الكئيبة تحت وطأة منع التجوال الذي فرضه ذلك الخبر المشؤوم، ننام عندما ينام الدجاج لنصحو مبكرين مع صياح الديك،

ونحن نبتهل إلى الله بأن تتشق الأرض وتبتلع ذلك الكلب المسعور، الذي لم يجزم أَحَدٌ أنه رآه عن كثب.

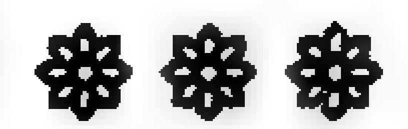
مـرّت أيام متوترة، ونحن على هـذا الحـال. أصبح الأهـالي أكثـرَ قُرباً والتصاقاً ببعض، اجتمع الكهول وألو الرأي والحكمة في بيت الطَيِّب الشُوكاني حارس القريـة لتَدَبُّر الأمـر، بينما وقـف هـو علـى رأس الجميـع مزهـواً ببندقيـة صـيد عتيقـة، يطمئـنهم، ويـذكرهم بمواقفـه الـشجاعة في طـرد الـذئاب الـتي كانـت تغـزو مـزارع العنـب أثنـاء الليـل، علمـاً أن لا أحـد في القريـة تحقّق من ذلك، كـان كلّ ليلة يتمايل أمـامهم بقامته القصيرة في حركـات كاريكاتورية سـاخرة، فيمـا هـم يشربون الشـاي..

يثرثـرون لـساعات ثـم ينـصرفون بـدون أن يحـدث شيء، ليعودوا في الليلة التالية يجترُّون نفس الحديث عن ذلـك الكلـب المشؤوم، ويطمئنـون أنفسهم بـأن الطَيِّب الشُوكاني كفيل بتخليصهم من شرِّه.

بعد أسبوعين، بدأ الخبر يتلاشى، وذلك عندما عَلِمَ القوم بأن "علي العزري" سيتزوج أخيراً من "مَامَيّة" أكبر عانس بقريتنا. لم يعد أحد يكترث كثيراً بخبر الكلب المسعور. بل تداعى القرويون جميعاً للمشاركة، والاستعداد للفرح. دَبَّت حركة غير اعتيادية في أوصال القرية، نُصِبَت الخيام في الساحة المتربة، أوقدت القناديل، واجتمع شملنا في حلقات سمر ورقص بهيج تحت سماء أضاءها قمر الخريف الشّاحب.

في الليلة التي زُفّت فيها العروس لزوجها، وما أن تجمّعنا حول الموائد، وبدأنا نلتهم الطّعام، حتى لاح لنا حارس القرية الأوحد مقبلاً من بعيد، صحبة كلب إنجليزي من فصيلة البولدوج، لم نكن قد رأيناه من قبل، ولا ندري من أين جاء به، كان الحارس يبتسم والكلب يروح ويغدو بإزاء قدميه حتى توقّف، وآنذاك بدأ يَتَمَسَّحُ به مكشّراً عن أنياب حادة، ثم تقدّم خطوات ومدّ لساناً مشتعلاً، وكأنه يتحفّز لالتهام قطعة لحم أو عظم هشّمته الأسنان.

في تلك الليلة، أدركنا بأن الطيّب الشُّوكاني أهلٌ لحراستنا، طالما أنّه يجلب كلاباً غريبة إلى قريتنا.



أجنحة شفّافة

بدأ المطر يتساقط رذاذاً ناعماً، فيما كانت الشمس اللّدنة تُداعب غيوماً خفيضة بغمزاتٍ خجولة في هذه الظهيرة الخريفية، ثم سمعنا عواء ذئب عند سفح الجبل، فأخبرنا "معاوية الفرّاح" راعي الغنم بقريتنا وهو يسوق قطيعاً من الماعز المالطي، بأن الذئب يعلن عن خِتَان أحد أبنائه.

توقّف المطر قليلاً، فتشبَّثت قُطَيراتٌ منه بسقوف البيوت الطينية البيضاء، وعلقت حُبيبات بصوف خرافٍ كانت تقضم أعشاب الخُبِّيزة خلف دكّان "الطاهر الأحمر". أمام الدكّان تجمّع حشدٌ من القرويين حول "كانون" الشاي الذي أُوقِدَ للتوّ، فيما حطّت أسرابٌ من الزّرزور على سلك الكهرباء المقابل، وأخذت تهتزُّ في خدرٍ لذيذٍ تحت مطرٍ عاد يتساقط، والشمس تنثر تِبراً

وتتبسّم في حياء، وقد اكتملت طقوس ختان "ولد الذيب"[1].

من روابٍ خُضرٍ كساها الصّنوبر، هَبَّ هواءٌ باردٌ لذيذٌ، بعثر دخاناً قطنيّاً تحرَّر من طاحونة القرية، وحمل رائحة خبز التَّنُّور الساخن حتى عانقت شذا الشاي المُعطَّر بالنعناع، فيما كان الأطفال يتزحلقون بأقدامهم العارية فوق الطين المبتلّ (الزّحليقة) في نشوة، غير مبالين بصراخ الأمهات "توقّفوا عن تلطيخ ملابسكم يا حلاليف"، ولكن قطار المرح البريء لا يتوقّف.

في السّاحة، وأمام منجرة الحاج "سليمان عبازة"، تعلّقت أنظار ثلة من الكهول في دهشة بقوس بديع الألوان عُلِّقَ في السماء، وأخرى أحاطت بالموقد، وهي تثرثر دفئاً.. تشوي أكواز الذرة (القطانية).. وتُلقِمُ النَّارَ مزيداً من نُشارَة الخشب، وأغصان الخرُّوب والكاليتوس المُبتَلَّة.

---

1 ختان ولد الذيب: عندما يتساقط المطر وتكون الشمس مشرقة، كان اهالي قريتنا يقولون بأن ذلك حدث لأن عن الذئب يعلن ختان أولاده.

بعد سويعات، امتزجت رائحة المطر برائحة الطين، وأريج الصّنوبر، ثم سمعنا ثغاء شاة تعلن عن مولد حَملٍ غسله رذاذ المطر النّاعم. آنذاك لثمت أسراب الزّرزور سلك الكهرباء العاري، صفّقت بأجنحتها، ثم أحتضنها الأفق الشفّاف مَراوِح صغيرة من الكهرمان.

....

عندما أفقت على رنين الهاتف، كان صديقي (الذي يقيم معي في نفس المدينة، بأمريكا) يخبرني - على الطرف الأخر - بأنه منذ قليل أصدرت مصلحة الأرصاد الجويّة تحذيراً لإعصار مدمِّر، قد تتعرض له منطقة جنوب أوكلاهوما، وغرب تكساس. عندئذ غادرت النافذة المشرَعة للغيوم السّوداء، وزمجرة العواصف. أدرت زرَّ التليفزيون. رُحتُ أحملق في الشّاشة مُصغياً في سكون إلى أنين الغربة.. وقد اختفت الصورة. .. وطارت بأجنحةٍ شفّافة.

❋❋❋

العين الزرقاء

كان يوماً مشمساً حارقاً، عندما تجمّع الرجال، والنساء، والأطفال، وغصّت بهم ساحة قريتنا. تحلّقنا حول شيخ فارع الطول، أسمر البشرة، يرتدي جلباباً أبيضاً فضفاضاً، ويعتمر طاقيةً قرنفليّة اللّون، وينقر على دفّ رماديّ، مُحركاً رأسه يمنةً ويسرةً، وهو يردّد بلكنة مغربيّة: "يا لطيف تلطف بينا يا لطيف". كان الرجل يهتزُّ متأرجحاً بين الغيبوبة والصحو، ومن حين لآخر يتوقّف شاخصاً ببصره إلى قمم جبال طوّقت القرية، والزّبد يتطاير من شدقيه. هذا الشّيخ، يدعى "بوجمعة"، وقد حلّ بيننا ذات صيف قائظ، وجلّنا لا يعرف عنه الكثير.

مضى زمن غير قصير والحال كذلك، والقرويون في ذهول ووجوم، وقد ذهب الخوف بكلِّ ملامحهم، حتى أطلَّ الحاج قدُّور "شيخ القرية" من مزارع العنب،

وهو يقود ثوراً سميناً توهّج بوميضٍ فضّي اشتدّ لمعاناً تحت شمس الظهيرة، يتبعه رجلان يحملان قدرين من نحاس، وآخران يقرعان طبلين بشدّة، ويصيحان: "يا لطيف تلطف بينا يا لطيف.. يا خايڤ الألطاف، نجّنا ممّا نخاف". عندئذ اشرأبّتْ الأعناق ناحية الرجال الخمسة والثور، وبدأ الجميع يردّدون معهم بصوت مدوٍّ: "يا لطيف تلطف بينا يا لطيف". ثم وبإيماءة من الحاج قدُّور، لم يلبث الجمع أن أفسح الطريق للشيخ "بوجمعة" ليقودهم، يتبعه الحاج قدُّور، ثم الرجال تليهم النساء، والأطفال، وبعض الكلاب.

انطلق الموكب. غاص ڤي ظلال الأشجار العملاقة التّي حفّت الطريق، وصدى الطبلين وأصوات الرجال: "يا لطيف تلطف بينا يا لطيف" تزداد حدّة، حتى انتهينا إلى مقبرة سيدي عبد العالي، وأطلّت القبور الطّينيّة بين الحشائش اليابسة. هناك توقّف الموكب اللاهث قليلاً، أوقدتْ بعض النساء شموعاً كنّ قد حملنها معهّن، وضعنها أمام المقام المرشوش بالجير الأبيض، ثم اتّخذ

الموكب سبيلاً عبر ممرّ ضاق بين أشجار الصّنوبر حتى تركنا الغابة، وبدأت المسالك الترابيّة تتلوّى في اتجاهات شتّى، وكأنها أفاع غبراء. عندئذ صاح الحاج قدُّور وهو يلوّح بعمامته البيضاء: "إنّني أرى الجبل من هنا، هذا الطريق أقرب سبيلاً إلى العين الزرقاء"، ثم أشار يميناً فتبعناه.. بلا تردّد.

لم أكن قد بلغت السابعة آنذاك، وكبقية أترابي، لم نكن نعلم أو ندرك ما يحدث، لأننا إن سألنا لن يُسمع صوتنا، وإن سُمِع فلا نُجاب، وإن ألححنا في السؤال، تنهرنا إحدى النساء بشدّة، لذلك اكتفينا بالسَّير مع الموكب صامتين، نراقب الأرانب البريّة تمرق مذعورةً في اتجاهات شتّى، ونطارد على جانبي الطريق فراشات ملوّنة، خفقت في الفضاء الماسي وكأنّها زهور، ثم نعود لنفكّر في غرابة الموكب.

عند العصر، وما إن وصلنا إلى "العين الزرقاء"، حتى صلّى الرجال، ثم انتظموا في حلقات ذكر ودعاء، فيما النساء جلسن يثرثرن في مجموعات تناثرت تحت

أشجار الصنوبر. مضت ساعة والحال كذلك، قبل أن يبدأ الحاج قدُّور بذبح الثور، بينما أضرم الرجال ناراً هائلة تدفّق من جوفها دخان كثيف، وكادت ألسنتها أن تلحس قبّة السماء.

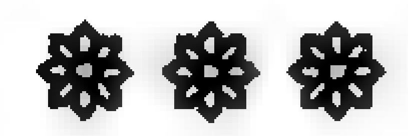
لم يمض زمن طويل حتى أخذت بعض النّسوة بإعداد المرق، فيما بدأ الرجال في شيّ اللحوم، وهم يدعون ويبتهلون بألا تثور براكين مدمّرة من قمم جبال أحاطت بالقرية، كما رأى وتوّعدنا "الشيخ بوجمعة"، والذي قذفت به "رياح القبلي"[1] إلى قريتنا منذ زمن غير بعيد. أوّل بركان كان سيثور من "جبل العين الزرقاء"، إلا أن يلطف بنا اللطيف الخبير، كما أقسم بوجمعة، فصدَّقه الحاج قدُّور وجلُّ مريديه، وقد اعتراهم رعب جامح، وأشتعل الهلع نيراناً في نفوسهم حيال تلك الرؤيا.

في ذاك اليوم، وُزّع لحم الثّور صدقةً وقُرباناً على الفقراء، أكلنا حدّ التخمة، ونضح شاربا الشيخ "بوجمعة" المنتصبان كقرني ثور بمرق اللّحم، وقضى

---

1 رياح القبلي: رياح محليّة ساخنة تهب من الصحراء.

الرجال جلّ الوقت في الصلاة والدعاء. أما أنا وأترابي، فقد رأينا في تلك المناسبة نزهة جماعية، لازلنا نتذكّر كم استمتعنا أثناءها باللّعب في حبور ونحن تارة نتسلق أشجار الصنوبر، وتارة أخرى نقطف الزهور البرّية، ونطارد طيور "البوخضيّر"، حتّى تهادى المساء، فجلسنا عند قمّة الجبل نتأمّل قرصاً بنفسجياً هدهده البحر النّاعم، بعيداً عن لعنة بركان غاضب، ما كان ليثور إلا في رأس "بوجمعة" وحسب، ومن كابوس تسبّب فيه صيف قائظ.



رائحة الصيف

عند تقاطع الطريق الساحلي المتجه شرقاً بالطريق الصحراوي الزاحف جنوباً، لم يكن هناك شيء في هذه البقعة المقفرة من الأرض، سوى كوخٍ من القش الأصفر، ومذياعٍ متهالك، ورائحة الصيف، وأكوام خرساء من البطّيخ، وشيخ جلَسَ وحيداً يُحَدِّقُ في أمواج البحر البيضاء تتدافع نحو الشاطئ، ثم تتلاشى، فيما تمدّدت كثبان الرِّمالِ خلف كُوخِه بحراً ملتهباً، سَكَنَ جوفه سُكُونٌ أبديٌّ مُوحشٌ. يا له من يوم قائظ، وقد استقرَّت الشمسُ في كبد السماء، فَرَكَنَ النسيم إلى القيلولة، وتراقصت ألسنة السَّراب فوق إسفلت الطريق كأطياف أبالسة.

احتمى الشيخ من الهجير بظِلِّ الكوخ، مَدَّ يداً واهنةً إلى قارورة ماءٍ كانت ملقاة بإحدى الزوايا. أفرغ جرعات متتالية في حلقه.. لكن الماءَ كان ساخناً مُرّاً.

بصقه في غيظ، ثم رمى بالقنينة جانباً ، واستدار ناحية مذياع صغير كان صوته يتحشرج. أدار المؤشر في كل اتجاه، بيد أن البثّ صار طنيناً ، وكأن أسراباً من الذباب استقرَّت في أحشاء الجهاز الهرم. رمى بالمذياع في ضجر. ثم تقدَّمَ بضع خطوات إلى الخارج أتاحت له مراقبة الطريق المقفر، وحينئذ فَاءَ ثانية إلى الظّل، والتحم ظهره بكرسيٍ خشبيٍّ بائس تقشّرَ طلاؤه، وتآكلت بعض أطرافه.

منذ الصباح لم تَمر إلا حافلة واحدة امتلأت بالركاب، ولم تتوقّف. ساعات مضت حتى أطلّت بضع شاحنات نقل مكدودة وهي تترنَّح، لكنها مرقت هي الأخرى، بدون أن يكترثَ سائقوها بأكوام البطّيخ المتلألئة بوميضها الفسفوري. هذا يوم قائظ، لا طير يطير، ولا إنسِي يتحرك، ولا عزيف جنٍّ يثقب صمت هذا القفر، دعك من الأمل، لن يغري هذا السعير، ولا أكوام البطّيخ أحداً بالتوقف. تخلّص من الملل. اهرب من هذا الهجير إلى البحر، وإن كان لك رزق في هذا اليوم

فسيأتينَّك بـه الـرزّاق. ومـضت هـذه الفكـرة كـبرقٍ خـاطفٍ في رأس الشيخ، فحـزم أمـره، وتقـدَّمَ وئيـداً نحـو الشاطئ المقفر، وقد غسل العرق جسده الـواهن، وكـاد نعلاه أن يذوبا ، قبل أن تُلامِسَ قدماه مياه البحر.

جلس على حافة الشاطئ، خلع أسماله البالية، ثم أخذ يغرف الماء بيديه، ويُبَلِّلُ جسداً أنهكه التعب، حتى أحسَّ بخدرٍ لذيذٍ يسري في عروقه، فبدأ تـارة يلهو بزبد المـوج الإسـفنجي، وتـارة أخـرى يسبح منتشياً فـوق المـوج الناعم، وقد ملأ البحر رئتيـه بضوع رذاذ الليمـون، حتى أنـه حـين فاضت بـه النَّشوى، وقـف بـين الأمـواج مـأخوذاً بسحرِ ألـوانٍ قُزَحيَّة تبدّت لناظريـه، وكـان البحـر مـن حوله يتلألأ شفافاً تحت شمس حزيران. آنذاك خُيِّلَ إليـه أنـه يـرى عـرائسَ البحـر وقـد تخلَّصن مـن زعـانفهن، فاتنـاتٍ، مُبتَسِماتٍ، يرقُصن فـوق المـوج أنصافَ عرايا ، ويمددن له أيادٍ خضَّبتها الحنَّاء وماء الورد. مدَّ يده. مددن أيـديهن في حُنُـوٍّ. اقـترب رويـداً ، رويـداً. ابتعـدن قلـيلاً في خجـل فطـري ودلال. تـبعهن في شـوق ولهفـة. ركـب المـوج..

حلّق بأجنحة بيضاء ليمسك بضفائرهن، فتفرقن أشتاتاً عند نهايةِ تمازج السماء بالبحر، ولم تقبض كفّاه إلا على حفنةٍ من الماء المالح.

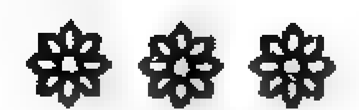
آنذاك، توقّفت شاحنة زرقاء، اعتاد سائقها أن يستريح عند كوخ الشيخ، كلما مَرَّ بهذا الطريق. كما اعتاد أن يأتيه بطعامٍ، ثم يجلسان لبعض الوقت، يحتسيان الشاي معاً، ويتحدثان قليلاً. بمرور الأيام تآلف قلباهما، وبدأ السائق الكهل يحس بعطفٍ جارفٍ حيال هذا الشيخ الذي اقتربت خُطاه من الموت وحيداً في هذا القفر.

تَرَجَّلَ سائق الشاحنة، وقف بباب الكوخ، ولكن لم يكن هناك أحد. بحث خلف الكوخ، نادى... كرَّر النداء، ولا من مجيب. "هل يكون خلف إحدى الكثبان لقضاء حاجة، ولكن لا أثَرَ لقدَمٍ في ذاك الاتجاه". دار حول الكوخ دورةً كاملةً، ثم صاح: "ها أنا ذا قد جئت.. أين أنت". تبدّد نداءه في الفراغ، وأطبق السكون، فاستبَدَّ به القلق، وسَرَت في جسده قشعريرة باردة،

أحسّ بها وخزاً في ظهره، ثم فجأة رأى آثارَ قدمين تتجهان شمالاً.

اقتفى الأثر، قاده إلى الشاطئ.. خطوةً.. خطوةً، حتى انتهى عند أثرٍ لخطوتين غائرتين، كاد أن يمحوهما الموج. عندئذ توقف مرتجفاً، ثم صاح بصوتٍ جريح. "ها أنا ذا قد جئت.. أين أنت..

هل تسمعني.. هل تسمعني". تماوج الصوت مرتجفاً مع ريح خفيفة هَبَّت على الشاطئ، عاود النداءَ، فَتَكَسَّرَ الصدى على الأمواج، وانتفض طائرٌ كان يلهو منفرداً فوق صفحة الماء، طار مترنّحا في الأفقِ، ثم حلّق بعيداً.. بعيداً جداً.. حتى أمسى نقطةً شفافةً، تلاشت في الفراغ.



عولمة

ثغر مدينة الحمّامات[1] يشرق بابتسامة عذبة، والقلعة العتيقة على الساحل تبدو شامخةً وهي تحتضن مقهى "سيدي بوحديد". المقهى غص بالسيّاح الذين لفحت شمس البحر الأبيض المتوسط جلودهم، فبدت حمراء مثل أسماك السلمون، فيما تألّقت عيونهم الزرقاء بفيض من البهجة والسعادة.

غادرنا المقهى أنا وزوجتي وابني لكي نستقل إحدى القطارات السياحية الصغيرة، والتي كانت تقف على بعد أمتار من القلعة. أشرت إلى قطار وردي زُيِّنت جدرانه الخارجية برسوم لنخيلٍ باسق، وجمالٍ وديعة، وصحراء ذهبية، بيد أن زوجتي أصرّت على ركوب قطار أزرق اللون، رُسِمت على جوانبه صور للفأر ميكي ماوس،

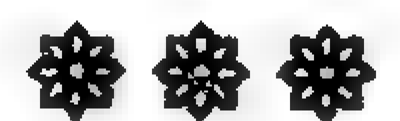
---

1 الحمّامات: مدينة سياحية ساحرة بتونس.

ومسز بيكي، وبيتر بان، ورسوم أخرى "لديزني لاند".
حتى ابني الذي جاوز عامه الأول ارتسمت على ثغره ابتسامة ملائكية، وبدأ يصفق في حبور وبراءة عند رؤيته القطار الأزرق برسومه وحيواناته.

ركبنا القطار، وتركنا خلفنا أسراباً من النوارس تلهو على الشاطئ الرملي، تحت سماء صافية سبح في زرقتها خيطان من الدخان الأبيض، خلفتهما طائرة حلّقت على ارتفاع عال، كنّا نسمع هديرها ولا نراها.

عندما انطلق القطار، كنت أنا وزوجتي نعلم وجهته، أما ابني فقد كان سعيداً، وإن كان لا يعلم إلى أين سيتجه القطار الأزرق ذو الرّسوم والنّقوش الأمريكية، والذي تَقُوده قاطرة صغيرة على هيئة "ميكي ماوس"...



الثعلب

بعد أن اهتدى إلى سبيل لتنفيذ فكرة راودته منذ أيام، ارتدى بذلته البُنِّية، وجلس يحتسي قهوته مبتسماً للمرآة، ثم خرج من شقّته، استقلّ السيارة المُستأجرة، وغادر المدينة وهي لازالت تتثاءب تحت غلالة فجر جميل، حتى غابت السيارة بين جبال اغتسلت قممها بقزع ضبابيٍ بارد، وتلوّى الطريق بين أقدامها أفعواناً من الإسفلت.

قُبيل الظهيرة، وفيما أخذت شمس آذار تترقرق دفءً وبهجة، وصل إلى قرية نائية بها محطة للحافلات. أمام المحطّة اكتظّ مطعم صغير للشّواء بحشد من المسافرين، وعجّ فناؤه بصخب جذل، وذيول دخان بيضاءَ بعثرها النّسيم. توقّف أمام ذلك المطعم، جذب كرسيّاً وجلس في هدوء حول منضدةٍ من خشب

الصّنوبر، حتى هرع إليه صاحب المطعم هاشاً، وهو يقطر عرقاً، فطلب صحن حساء، وطبقاً من لحم الضأن المشوي. استدار صاحب المطعم، ثم اتجه إلى الداخل، وبعد وقت قصير، أحضر له ما أراد. في ذلك الحين أطلق سائق حافلة كانت متوقّفة بوقه استعداداً للمغادرة، فتدافع الرّكاب، حتى استقرَّ كُلُّ في مقعده، وانطلقت الحافلة، فأقفرت المحطة، وعمّ المكان هدوء رائق.

بدأ يتناول طعامه بتأنّ، مجيلاً بصره في مروجٍ خضراء أمامه، حلّقت في سماءها أسرابٌ من اليمام والقطا، في مشهدٍ خلابٍ راق له، ثم بعد لحظات وكأنه وجد ضالته، نادى على صاحب المطعم، وسأله هامساً، وهو يشير إلى ثلاثة رجال بثياب زرقاءَ مغبرة، يتفيّؤون ظلال أشجار الخرّوب.

من أولئك؟. أجابه صاحب المطعم:

هؤلاء عمال يعملون بمزرعة مجاورة، وقد دأبوا على القيلولة تحت ظلّ تلك الأشجار.

ألم يرتادوا مطعمك من قبل؟

- سيدي هؤلاء بُؤسُ، قُوتهم الخبز والزيتون، أما اللّحم فنادراً ما يذوقونه.

- هل لك أن تدعوهم، فهم ضيوفي اليوم. دعهم يشبعون. وسأسدّد لك الحساب كاملا.

حدَّق صاحب المطعم في الرجل مُرتبكاً، وقد طفحت على وجهه أمواج الدهشة، هل الدنيا بخير إلى هذا الحد، حتى ترى بأمِّ عينيك رجلا كريماً في زمن جهمٍ كهذا؟ أيعقل هذا؟ ولكن لم لا؟ ألا ترى أثر النعمة بادياً على الرجل؟ هكذا تساءل في سرّه، ومع ذلك تردّد في دعوة هؤلاء البائسين، حتى حدجه الرجل الأنيق بنظرة جادة، وحينئذ نَفّذَ ما أراده. وما هي إلا دقائق، حتى كان الرجال الثلاثة يلتهمون أطباقاً من اللّحم المشوي في سعادة حتى شبعوا، ومن ثمَّ شكروا الرجل، وانصرفوا إلى أعمالهم. سدّد الرجل الأنيق الحساب. زاد عليه، وظلَّ جالساً، وقد ارتسمت على

وجهه مظاهر حزن عميق، فيما كان صاحب المطعم يراقبه بفضول واستغراب.

حاول صاحب المطعم أن ينشغل بشيء آخر، دون جدوى، ظلّ يراقب الرجل، متعجّباً من شأنه، ودّ لو سأله عن سرٍّ وجومه وحزنه، بيد أنه أحجم عن ذلك. تظاهر بتنظيف المناضد، رتّب الكراسي المبعثرة، ثم رشَّ الماءَ على أُصص القرنفل والنّعناع بجوار المطعم، إلا أنَّ فضولا حارقاً ملحاحاً لازمه كظلٍّ ثقيل، ودفعه لأن يدنوَ من الرجل ويبادره متسائلاً: مالي أراك حزيناً؟. لم يجبه الرجل الأنيق، وكأنه تجاهل السؤال. لم يطق صاحب المطعم الصمت، فبادر متسائلاً:

- سيّدي، أنت رجل لا يعوزك المال. ترفل في ثياب فاخرة، وتبدو في صحّة جيدة، فما الذي يحزنك؟ أطرق الرجل الأنيق لبرهة من الزمن، ثم أجاب بصوت متهدّج:

- زوجتي التي أحبُّها، ألمَّ بها مرض منذ زمن، وقد عرضتها على أمهر الأطباء وأشهرهم، فلم يفلح أحد في علاجها حتى اليوم.

ثم أضاف: لقد أعيتني الحيل، ولم يبق إلا علاجاً، أوصى به آخر الأطباء وأكفأهم.

سأله صاحب المطعم: وما ذاك، وقد أذهله بنبل عواطفه.

- لحم الثعالب. أجاب الرجل ذو الملابس الأنيقة، ثم أردف بدون أن يمنحه فرصة لإلقاء أي سؤال، ولكن يا أخي من أين لي ذلك، وأنا أسكن المدينة، إلا إن تساعدني أنت؟

- كيف يمكنني ذلك؟

- أنت تسكن في الريف الرّحب، وحولكم هذه التِّلال والمروج الخضراء، كما أنك تعرف المزارعين والرُّعاة بهذه الناحية، وبوسعك أن تسألهم بأن يصيدوا عدداً من الثعالب، وسأدفع لك ثمناً مجزياً، ألفا أو ألفي دينار عن كل ثعلب. المال غير ذي بال، وكل ما أتمنّاه، هو أن تتعافى زوجتي الحبيبة، وهنا تلألأت دمعتان في

عيني الرجل الأنيق. ثم مَدَّ يده بحزمة من أوراق مالية إلى صاحب المطعم.

بقي صاحب المطعم يحدّق فيه مذهولاً. راودته شكوك بأن الرجل ربما يسخر منه، أو أنه غريب الأطوار، إلا أن مظهره الوجيه وما أبداه من كرم ونبل وعاطفة حيال زوجته المريضة، وكذلك مبلغ الخمس مائة ديناراً الذي نقده إياه كمكافأة، كانت أسباباً كافية لأن تدفع بالرّيبة جانباً. لذلك أطرق برأسه إلى الأرض مفكّراً لدقائق في صمت، ثم طلب من الرجل الأنيق أن يمنحه فرصة لتدبّر الأمر. حينئذ نظر إليه الرجل ذو الملابس الأنيقة بارتياح بالغ. أثنى عليه. ثم أخبره بأنه سيعود في غضون أربعة أيام، ووعده بأنه سيجزل له العطاء، ويدفع ثمناً سخيّاً عن كل ثعلب، ثم صافحه مودّعاً، وركب سيارته، وغادر المكان.

عند المساء، عاد صاحب المطعم إلى بيته يترنّح تعباً. طفق يفكّر في الأمر، ويصارع أمواجاً من الحيرة. تارة يتأجّج الحماس بين جوانحه، حتى يكاد أن يرى الثعالب

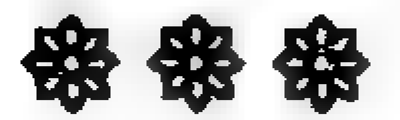
بفرائها الحريريّة تتقافز هنا وهناك، ثم يتردّد ويخبو الأمل لبعض الوقت، فتمتلئ روحه كآبة ويأساً، لكن سرعان ما يتبدّد هذا الشعور، ليشتعل الحماس مرّة أخرى قناديل متوهّجة تكاد تضيء له الدروب لبيوت المزارعين والرّعاة، وتدفع به إليهم طلباً للعون في هزيع الليل الأخير. لم يهنأ بالنوم تلك الليلة. مرَّ الليل ثقيلاً. كان يذرع حجرته جيئةً وذهاباً، ثم من حين لآخر يطلّ من النافذة متأمّلا قمراً برتقاليّاً حاصرته غيمة على هيئة طائر خرافي فرد جناحيه ثم تلاشى، حتى حزم أمره أخيراً، فقرّر أن يصبر ويتريّث إلى الغد، "فالصّبر جميل.. والصّباح.. رباح". في الصّباح فكّر في إغلاق المطعم، حتى يتسنّى له أن يلقى المزارعين والرُّعاة، إلا أن هذا اليوم صادف موعد السوق الأسبوعي بالقرية، ولذلك أعرض عن هذه الفكرة، ورأى أن يؤجّل أمر الثعالب إلى اليوم التالي.

لكن في ذات اليوم، وقبل غروب الشمس بقليل، توقّفت شاحنة برتقاليّة صغيرة أمام مطعمه. ترجّل

سائقها. وكان المطعم قد خلى من الزّبائن. طلب طبقاً من اللّحم المشوي، وظلّ من حين لآخر يتّجه نحو صندوق الشاحنة، لتفقد شيء ما. أثار ذلك فضول صاحب المطعم. فسأله ما شأنك، وماذا لديك. أخبره السائق. إذّاكَ وكأنه عثر على كنز ثمين، فغر فاه غير مصدّق. كاد يطيرُ فرحاً، وقد أيقن بأنه عثر على ضالته. لذلك جذب كرسيّاً وجلس قبالة السائق، والغبطة تكسو محيّاه، وأظهر لطفاً وهو يساومه، مُفصحاً عن لهفة جامحة في أن يشتري ما لديه. تظاهر السائق بالرَّفض. أبدى أسباباً كثيرة لذلك، إلا أن صاحب المطعم لم يستسلم، بل ظلّ يتودّد إليه، ويلحُّ، مُبدياً استعداداً لدفع مبلغ مُجزٍ من المال. إذّاكَ، لم يعد بوسع سائق الشاحنة، إلا أن يذعن لطلبه، ويكمل الصفقة. استلم السائق النقود، وسط حبور صاحب المطعم وغبطته، ثم أنزل قفصاً خشبيّاً كان على متن الشاحنة، ووضعه برفق أمام المطعم، ثم مضى.

ما أن غادر سائق الشاحنة المكان، حتى جلس صاحب المطعم منتشياً، وهو يرتشف الشّاي، محدِّقاً أمامه في عشر عيون برّاقة غمرها نور الغروب المذَهّب، فتلألأت خلف القضبان الرّفيعة. كان يستعر شوقاً لملاقاة الرجل الأنيق. تمنّى لو أن الزمن يمرق بسرعة، لكي يشرق ذلك اليوم المنشود. كان واثقاً من أن الرجل الأنيق سيندهش، لا بل سيطير فرحاً، وإذّاكَ سيجري المال بين كَفَيَّ كالماء. هكذا حدَّث نفسه، وكذلك تصوَّر الموقف.

بعد أسبوع، كان صاحب المطعم لازال ينتظر قلِقاً. يحدوه أمل في عودة الرجل الثعلب.. فيما كان هذا وصاحبه، سائق الشاحنة البرتقاليّة، يجلسان في مقهى فاره يعبق بنسيم البحر، وهما يبتسمان بخبث ومكر، بعد أن ارتشفا قدحين من عصير اللّيمون المنعش، واقتسما خمسة آلاف دينار.



64

بعد منتصف الليل

انتصف الليل، والمطر مازال يئِزُّ عنيفاً، ومع انقطاع التيار الكهربائي، طُمِسَت معالم المدينة، وبدت جبال طوّقتها في البُعدِ كأطواد من الفحم المُبَلّل. وها هو ذا لاهثاً مبتلّا، وقد ازرقّت شفتاه من لسعات الزمهرير، ينحدر من شارع قَفرٍ، ليلوذ بسقف محطة قطار، دلّت عليها لوحة فسفورية عملاقة عُلّقت على الواجهة.

حال وصوله، ألقى بجسده على مقعدٍ رطب، طفق يجفّف شعره الأشيب المنكوش، ومعطفاً رثّاً مهلهلاً، وهو يحدّق مشدوهاً بعينين هلاميتين، في سياط المطر الذي ازداد شدّة، حتى استعاد قواه أخيراً، فامتدّت يمناه لكيس ورقيّ، كان قد أخفاه تحت المعطف، أخرج منه كسرة خبز، وقد عضّه الجوع، وهمّ بأن يأكل، لكنّه أحسّ بألم في أمعائه، وصعدت إلى حلقه غصّة حارقة، ثم اعترته قشعريرة، وكاد يبكي، عندما استعاد تفاصيل

صباح هذا اليوم القاسي، وكيف طردته زوجته الخائنة، بعد أن أشبعه أخواها العاطلان عن العمل ضرباً موجعاً، واستوليا على ما لديه من متاع. اضطرمت بداخله نيران غضب، حينما تذكر كيف أهاناه وركلاه في وحشية، وهما يصرخان فيه:

"أغرب عنا. ولا تعد.. ما أتعسك من فقير معدم، وما أبغضك من عقيم بائس".

غمغم ساخطاً: آه.. يا لهم من قساة.. تبّاً لهما.. وتبّاً لامرأة السوء تلك. ليست بأفضل من زوجتي الأولى، والتي عندما التقيتها أوّل مرّة، شَغُفت بي حبّاً، خلته صادقاً مخلصاً، بيد أنها وبعد سنوات، التهمت فيها شبابي ومالي، لم تحفظ لي حسن معاشرتي لها، بل نبذتني هي الأخرى، بحثاً عن فحلٍ يمنحها الولد.

عزف عن الطّعام، ولاذ بالصمت شاخصاً بعينيه في الظلمة الحالكة، ومصغياً لذاتٍ جريحةٍ، ثم أشعل سيجارة. عبَّ منها أنفاساً عميقةً متتابعةً، وطفق ينفث الدخان سحباً كثيفةً عكرةً، وهو يتأرجح بين سخط

عارم على النساء، وبين الرثاء لما آل إليه حاله. ظلّ كذلك حتى مضت قرابة الساعة، هدأ أثناءها المطر، وبدأ يتساقط رذاذاً ناعماً، قبل أن يتوقّف. آنذاك عمَّ المكان سكون حميم بعث فيه شعوراً بالصفاء والسكينة. لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، إذ بغتة تناهى إليه لهاث محموم، ثمّ غزت أنفه رائحة عطنة، وما هي إلا لحظات، حتى ثقبت ظلمة الليل عينان شعّتا ببريق خاطف.

حدّق في الزائر الجديد، مشرئبّاً بعنقه إلى الأمام، فتسمّر في مكانه، وتملّكه خوف شديد، دفعه إلى الالتصاق بحائط المحطة مرتجفاً وأسنانه تصطك. لكن ذلك الشبح أقعى لاهثاً، مرتعشاً، وهو يقطر ماء ولم يتقدّم، بل ظلّ مكانه. بعد لحظات من التوجّس، التقت عيناهما بنظرات نزفت بؤساً، فرمى الرجل إليه بكسرة خبز، ثم أتبعها بأخرى، فالتهمهما في لحظات، وتمدّد باسطاً ذراعيه. ظل الرجل يرمقه بريبة، متوجساً خيفة، حتّى أغمض ذلك الشبح عينيه، وخفّ لهاثه،

وعندئذ بدأ خوفه يتلاشى، وشعر بشيء من الأمان، فتمدّد منهكاً على مصطبة خشبيّة توسّطت المحطة وحاول أن ينام. مضت دقائق، قبل أن ينهض الشبح الجاثم على الأرض التي غسلها المطر. تمطّى، نفض جسده، ثم اختفى وئيداً ، فأستسلم الرجل لنوم عميق.

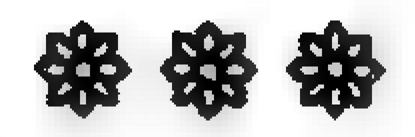
بعد قرابة ساعة، استفاق مذعورا ثانيةً. هذه المرّة أيقضه صوت خشن أجش ينهره بشدّة. فرك عينيه في إعياء، ثم حدّق مرتعباً في خيال حاصره وكاد أن يجثم فوقه، فإذا بشاب قويّ البنية، بشع الملامح، تقدح عيناه شرراً ، وبيده مدية طعن لمعان نصلها أحشاء الظلمة، يأمره مهدّداً بأن يناوله محفظة نقوده وساعة يد كانت بمعصمه. تجمّد من الخوف، حاول أن ينهض أو ينطق، فلم تسعفه قواه الخائرة ولا صوته الذّي انحبس، فتكوّم على المصطبة ركاماً آدميّاً ، واستسلم لقدر محتوم. آنذاك همّت قبضة حديديّة بأن تطبق على عنقه. لكن بغتةً، وبوثبةٍ كومضة برق، ارتمى شبح انسلخ عن جسد الليل على ظهر ذلك الشاب، وأنشب فيه مخالباً وغرز

أنياباً، جعلته يتلوّى ويطلق صراخاً حاداً، وهو يحاول جاهداً التخلّص من مهاجمه، حتى أفلح، فأطلق ساقيه للرّيح دامياً، وابتلعه زقاق موحش.

آنذاك أطبق سكون ثقيل على المكان، فرفع الرجل رأسه، شاخصاً بعينيه إلى منقذه وكأنه أفاق من كابوس مرعب، فلم يسعفه لسان انعقد بأن ينطق، فما كان منه إلا أن استلقى منهكاً، وغرق في سبات عميق، وكأنه في غيبوبة، لم يصحو منها، إلا فجراً عندما شعشعت أنوار المحطّة بعد عودة التيّار الكهربائي.

بعد أن أفاق، واستجمع قواه، نظر حوله فرأى صديقه غير بعيد، ممدّداً على الأرض وقد بسط ذراعيه وكأنه قضى الليل يحرسه. نهض، تقدّم منه غير وجل، ربت بيده على ظهره، ثم حمل لفافة أسماله، وحزم أمره على العودة إلى قرية هجرها منذ زمن، ولم يبق له فيها من الأهل سوى أخت عجوز.

في طريق عودته، كان يتبعه صديقٌ وفيٌّ، وهو يسير عبر شوارع المدينة مشرئباً برأسه إلى الأفق الواسع، يغمره شعور بأنه أصبح حرّاً طليقاً، وقد دفن الخوف والفضيحة، .. فيما قلوب خاوية عَقُمَت وفاءً، وعيون زائغة، غصّت بها الشوارع، كانت تفترسهما بنظرات كلّها.. ازدراء وسخريَّة.



الهلال الأخرس

ظَلَّ المنسي بن محمد لغظف أكثرَ من رُبع قرن قابعاً بتندوف[1]. تندوف لم تَكُن لَهُ بيتاً، وإن كانت أرضها قد مَسَّت شغاف القلب. كان يحلم بجناح وهو يرنو إلى الهلال، ويناجيه في شوقٍ لساحل طنجة. هاله أن الهلال الأخرس يهرب كل مرة خلف الغيوم.. ولم يَعبُر سَماءَ تندوف سِربٌ من القطا.

قبل أن ينقطع خيط الرجاء، جاء عيد الميلاد[2] فحمل الهديَّة، وأَغرَق الفرحُ رأساً بلَونِ الفضّة. لكنه عندما كان يسير وحيداً ومرايا الرَّمل تَعكسُ ظلَّه،

---

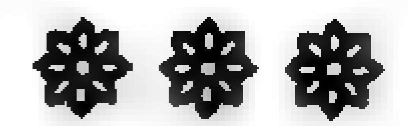
1 تندوف: مدينة صحراوية تقع جنوب غربي الجزائر، احتجز فيها الأسرى المغاربة أثناء الحرب التي قامت بين المغرب وجبهة البوليساريو. (بعض الأسرى المغاربة قضى أكثر من عشرين عاماً في المعتقل).

2 عيد الميلاد: المقصود به هنا هو عيد ميلاد المسيح، استخدم في القصة كرمز.

كان يسمع صوتاً كهدير الموج يَسألُ في انكسار...

أهذا ما صنعه بنا الدم الواحد؟.

لم يلق جواباً.. وظلت الصحراءُ تنزفُ أنهاراً من الدّم.



خَيبَة

كانا أخوين. أبي له الأولاد. وعمّي نصيبه البنات. يعمل أبي أجيراً. يحرث الأرض. تعانق قُطيرات عرقه مطر الخريف الناعم، وعند توهّج الصيف يتماوج ظلّه مع سنَا حقول القمح. أمّا عمّي فكانت له سبع بقرات سويسريّات. بعضهن بيضاوات مرقّطات بالأسود، والأخريات بنّيات اللّون. كلهن سمان، متوهّجات، وكأنهن أبقار من الشوكولاته.

كانت حظيرة الأبقار تطلُّ على بيتنا. لذلك لطالما وقفت بمحاذاة السيَّاج الخشبي أتأمّل تلك البقرات مع عجولهن، يطاردن بعضهن الآخر صباحاً، أو يفترشن ظلال الصنّوبر وقت الظهيرة، وقبل المساء يُفتَح الباب الحديديّ للحظيرة، فيتدافعن نحوه، تتبعهن أشعّة الغروب المذهّبة إلى إسطبل بناه عمّي بجوار بيته، لكي يُحلَبنَ عند الفجر.

كلّما عدت إلى طفولتي، أتذكّر أنّني كنت كثيراً ما أسأل أبي، لماذا لا نملك أبقاراً كالتي لعمّي؟ فكان الجواب تارة ابتسامة ودودة، ثم يسود الصمت، وتارة أخرى يهمس في أذني "يا بنيّ دعك وشأنك الآن، سيأتي يوم تتبوّأ فيه مركزاً مرموقاً، وآنذاك سيكون بوسعك شراء قطيع من البقر". لكن ما أن يدرك خيبة أملي، حتى يمسح على رأسي قائلا "يا بنيَّ أبقار عمّك هي أبقارنا. تفوَّق في دروسك، وسأشتري بقرة تكون لك وحدك". ومذاك اليوم، صرت أحلم بعجلة تتبعني، وألهو معها بين مراعي حمّام الشط.

وكان أن تحقق الحلم ذات يوم رائق. في صباح ذلك اليوم، توقّف جرّار كان يقوده أبي أمام البيت، فخرجت مع إخوتي الصغار لاستجلاء الأمر، وكانت المفاجأة عندما ترقرق خوار ناعم، دفعني لأن أقفز في الهواء وكأنّني أتشبّث بجناحي طائر حلّق بي عالياً ثم حطّ خلف عربة كان يجرّها "التراكتور"، فعانقتني عينان

وديعتان، وداعبني صوت أبي حنوناً دافئاً وهو يقول: مبروك، هديّة من عمّك أبو عجيلة.

أنزلنا العجلة عن ظهر العربة. كانت وديعة هادئة، فقلت لأبي بصوت جذل، وأنا أمسّد رأسها، وأمشّط فروها الحريريّ بأصابعي، سنسمّيها حبيبة، استحسنت أمّي هذا الاسم. ابتسم أبي، وشدّ على يدي موافقاً، ثم قاد العجلة إلى فناء البيت، قبل أن نهيّأ لها مكاناً في مستودع خاوٍ، أزلنا نسيج عناكب اختنقت به زواياه، وفرشناه بالتّبن وأوراق الأشجار. وما أن أضحى ذلك المكان إسطبلا دافئاً يليق بضيفتنا، حتى جاءت أمّي بقدر ملأته عصيدة ولبناً، قدّمناه لها، فالتهمت كلّ ما فيه، ثم استراحت في سكينة.

لم نتوان عن الاعتناء بحبيبة، حتّى ألفتنا، وتعلّقنا بها. بعد أكثر من شهر، اشتدّ عودها. أصبحت عجلة سمينة، وتألّق جلدها بلون عسلّي صاف. وفي يوم من أيام الأحد ولأوّل مرّة، سمح لي أبي بأن اصطحبها إلى مرعى

ـ قرب حمّام الشط ـ يمتدّ بين شاطئ البحر وسكّة القطار.

عندما ابتسم الفجر اللؤلؤي، بدأت رحلتنا عبر طرق تلوّت بين حقول العنب والسفرجل، ثم قطعنا سفوحاً وودياناً وحين ابتعدنا عن القرية، وعبرنا الطّريق السّاحلي، ثم سكّة القطار، عانقنا على مدى البصر مرج تموّج زهوراً، وتناثر فوقه ضباب خفيف، سرعان ما بدّدته شمس آذار، وكان الأفق يحتضن طيوراً شكّلت أسرابها مظلّات بلون بنّيٍ، وعبق المكان بنسيم منعش حلو امتزج بشذا الصّنوبر وأنفاس البحر، حتّى تصوّرت بأنّ الحياة أشرقت على الدنيا لأوّل وهلة من هذا المكان.

قضينا يوماً بالغ الرّوعة. توالت الساعات سعيدة، وحبيبة ترعى .. تمرح .. تركض في جنبات المرعى، وأنا أتابعها، متأمّلا الحياة من حولي طيراً صادحاً، وغصناً وشوش في أذني، وفراشاً خفق بين يديّ، وطائراً أوغل في الأفق، ثم بسط جناحين دون حراك حتى بدا وكأنه

يطفو في الفضاء، وأرنباً أيقضه صفير قطار مرّ لتوّه، فمرق رشيقاً بين سيقان العشب الطرّي، ثم توقّف مصغياً لصفعات على إسفلت الطريق أحدثها مرور شاحنة، تردّد صدى الصوت ثم تلاشى رويداً رويداً، وبقي هدير البحر واهناً يأتي من بعيد.

قبل حلول المساء، عدت منتشياً، وحبيبة تتبعني كقطّة وديعة وسط إعجاب أترابي، وحشد من أهل القرية تجمهر في السّاحة. وهكذا توالت رحلاتنا إلى المرعى، وبعد زمن اطمأن أبي إلى أنّنا أهل لأن نعبر السكّة بسلام، بعيداً عن زمجرة القطار، ولم يعد يخشى علينا من مخاطر الطريق السّاحلي، أو دمدمة الشّاحنات والجرّارات الزراعية التي تجوب مسالك القرية عبر غيوم من الغبار ودخان الدّيزل.

مرّت بضعة أشهر سعيدة هانئة، وفي يوم خريفيّ وقت الظهيرة، سمعنا جلبة أمام المنزل، فإذا بحشد من القرويين يحملون أبي ممدّداً على نقّالة صنعوها من ألواح الصّنوبر، وقد عُصبت رأسه، وطوّقت ساقيه جبيرتان من

الجبس، ولطّخ الدّم والعرق والوحل ثيابه. صرخت أمّي حال رؤيتهم. طفرت الدموع من مآقينا وارتعدت فرائصنا هلعاً، فصاح جارنا عم "حمد الحلو" مطمئناً "إنه بخير، لا داعي للقلق وللبكاء، بل أدعو له بالشفاء العاجل". ما الخطب؟ تساءلت أمّي دامعة وهي تولول. "لا بأس" أجاب قرويّ بدين "لقد انقلب به الجرّار، فجُرح رأسه وكُسرت ساقاه، فالحمد لله على كل حال"، ثم جاء صوت أبي واهناً، وهو يئن، ولا يكاد يفتح عينين غائمتين "سأكون بخير إن شاء تعالى".

أُدخِلَ أبي إلى البيت. مُدِّدَ على الفراش، دثّرناه بجرد صوفيّ أهداه إياه جدّي، وتناوبنا مع أمّي وعمّتي على الاعتناء به. وفي المساء وطيلة أسابيع ثلاثة، كان الأهل وسكان قريتنا يتقاطرون لعيادته، مواسين والألم يعتصر قلوبهم، وهكذا مضت أيام وليالٍ عصيبة خيّمت فيها علينا كآبة سوداء، ثم تحسّن حال أبي قليلا، إلاّ أن الطبيب أوصاه بالراحة لستّة أشهر "بعد هذه المدّة سوف نرى إن كان ممكناً إزالة الجبس" قال الطبيب

مخاطباً أبي بصوت خفيض، وكأنه يعتذر قبل أن يتأبّط حقيبته وينصرف. لاذ أبي بالصّمت، وإن بدا رابط الجأش، إلا أنّ نظراته كانت تتضح ألماً وقهراً. ستّة أشهر لن يمشي، لن يسقي عرقه الأرض الدّاكنة، لن تحتضن عيناه بهجة الحقول، ثم كيف لنا تدبّر أمرنا؟ ونحن لا حيلة لنا إلا ذلك الأجر الزهيد، والّذي كان يتقاضاه فقط عندما يعمل.

كان أبي يتألم صامتاً. وأمي منهكة، تواجه الدّنيا بعزم، ونحن نكابد شظف العيش في صبر، وتمضي شهور ونحن لا نقتات إلا على قليل من التّين المجفّف، فيما كان مسيو "برنار" صاحب الضيعة، والجرّار غير آبه بشيء، عدا أن يتمرّغ في أحضان المدينة المجاورة مُنعَّماً هو وزوجته وكلبه، ولما لا، فالأرض معطاء، والمحصول وفير، والمال يتدفّق بين كفّيه كالماء، فهل يضيره إن ساء حال أجير، أو بُترت أطرافه أو حتّى تهشّم رأسه؟ فما هؤلاء البشر في نظره إلا عبيد مهمّتهم الحرثُ والزرع والحصاد، وتكديس المحصول

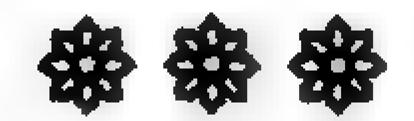
في مخازنه لقاء أجر زهيد ليس إلاّ في الحقيقة، ما أن علم بالحادث، حتّى طار صوابه لانقلاب الجرّار، وأخذ يسبُّ ويلعن، ولم يخمد غضبه، إذ هدّد بفصل أبي عن العمل، مع أنّ هذا الجرّار العتيق لم يصب إلا بضرر طفيف، سرعان ما تمّ إصلاحه.

بالرغم من فقره، أقرضنا خالي قليلا من المال. اقتسمت عمّتي معنا القدّيد والطّحين. جاد بعض الأقارب بشيء من الزّيت والسّكر. خالتي التي كانت تسكن المدينة المجاورة، لم تبخل بنصف مئونتها من الكسكسي والمحمّصة. وهبنا عمّي بعض النّقود بدون أن تدري زوجته الغيورة. ومع هذا وبعد شهرين ضاقت بنا ذات اليد، وأوشكت مؤونتنا من الغذاء أن تنفد تحت سطوة الحاجة، وحتّى نتدبّر أجر الطبيب والدواء، باعت أمّي كلّ ما لديها من حليّ، عقداً، وأساور من فضّة وخلخالاً أهدته إياها جدّتي.. بعنا دجاجاتنا الخمس وأقفاص الحمام، وحتّى ديكاً روميّاً أعرج، كان قد وهبنا إياه جار قديم قبل أن يرحل. لم يبق لنا شيء

نبيعه، هكذا كان اعتقادي، بيد أنه ذات مساء كئيب، أجهش فيه أبي بالبكاء، وذرفنا فيه الدّمع مدراراً، وأنشب الألم مخالباً حادّة في روحي، واعترتني برودة شديدة في ساقيّ، حتّى ظننت بأنهما شلّتا، كان القرار... وبعد يومين، كان الرّحيل...

ما أن رحلنا، وقد آبت الشمس إلى خدرها، وأعتمت ضيعتنا، إلا من ضوء شاحب جلّل قمم الجبال، وغيوم شفّافة هامت في الأفق كطيور من البلّور، حتّى ألفيت نفسي وحيداً في مرعى خاوٍ، أرنو إلى تلك الغيوم بعينين دامعتين، متسائلاً:

ترى إلى أين ستمضي هذه الغيوم؟ وهل ستُظلّل إحداها غداً... حبيبة؟.





الدكتور علي الطرابلسي

قاص وروائي

- المهنة: من كبار جيولوجيي البترول بقطر للبترول.

- الحالة الاجتماعية: متزوج، وله ولدين: (عبد الله ، وإبراهيم)

- العنوان الحالي: قطر للبترول، رأس أبو عبود، ص. ب. 47

الدوحة، قطر.

- البريد الإلكتروني: trabelsi@qp.com.qa

- مجالات الإبداع: القصة القصيرة، والرواية.

- المؤهل العلمي:

ماجستير ودكتوراة بتفوق في جيولوجيا البترول من أمريكا (جامعة تكساس تك) (Texas Tech University)

- المؤلفات المطبوعة:

مجموعة قصصية بعنوان (النورس)، صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ٢٠٠٤.

نشر بعض قصصه القصيرة أيضاً في موقع القصة العربية، وأصوات معاصرة، وعشتار، والعربي الحر، والزراف، وكيكا، ومجلة الأزمنة العربية، وجريدتي الشرق، والوطن القطريتين، وله أيضاً رواية مخطوطة.

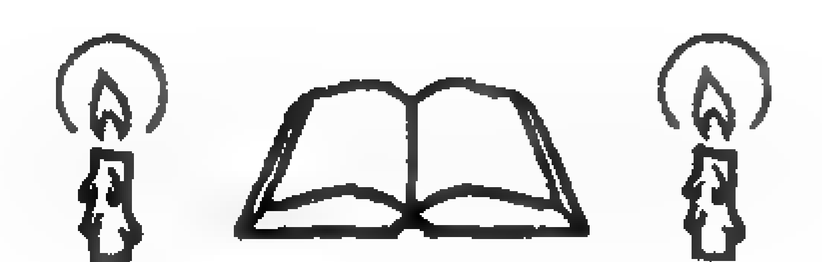
اختيرت بعض قصصه لورش القصة القصيرة في كلية التربية، الأقسام العلمية للبنات بالرياض بالمملكة العربية السعودية تحت إشراف مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله لرعاية الموهوبين.

نشر أكثر من أربعين بحثاً علمياً باللغة الإنجليزية في العديد من المجلاّت العالمية التي تعنى بشؤون الاستكشاف والتنقيب وإنتاج النفط.

من ضمن هذه المجلات :

- **Journal of Oil & Gas,**
- **Geological Society of America Bulletin (GSA),**
- **Houston Geological Society Bulletin,**
- **GeoArabia Bulletin,**
- **Oklahoma Geological Survey Circulars,**
- **Soc. Econ. Paleontologists and Mineralogists,**
- **West Texas Geological Society Bulletin & Symposium.**

وغيرها من المجلات ومطبوعات المؤتمرات الجيولوجية الدولية.



يفلح القاص الدكتور علي الطرابلسي في مجموعته القصصية الجديدة "رائحة الخريف والصيف" في القبض على مشاهد حميمة قادمة من الماضي والريف في آن، مشاهد محلقة وماتعة، تصوّر المقصي والمهمّش في ذاكرة قرانا البعيدة، أبطالها يغمسون الحكايات بآلامهم ومواجعهم ودموعهم، أبطال يسكنون دفء الحكايات، الحكايات ما زالت في ذهن الطفل الذي كبر في المدينة، وترك طفولته وقريته مخزنة في الذاكرة.

أبطال يأتون من دفتر العائلة، حيث الأب يضحي بصحته من أجل أطفاله، والأم الصابرة المحتسبة، والأقارب المتضامنون، وأهل القرية المتحابون، حيث تتالى المشاهد القصصية تباعاً يجعل المجموعة تقترب من مسمى الرواية المسكونة بشبح الجشع الطاغية لابرنار، وسيرة الأب الفقير، وذاكرة الطفل التي تجولت في مساحة مكانية بين مدن صغرة على الساحل، وقرى معلقة في الجبال، وشجر متنوع مزهر يحرص على الجمال والحكي.

عيسى الشيخ حسن

اديب وشاعر من سوريا

الفهرس



يقدم الكاتب د. علي الطرابلسي في هذه المجموعة القصصية مرآته الخاصة والتي تنعكس بعمق وجمالية... الحياة في جوانبها العديدة... حيث نجد في هذه المجموعة عوالم الريف والمدينة، الطيبة والقسوة، نجد نكهة البحر والجبال والسنديان والغروب ودائماً نجد نكهة تونس ... نجد الإنسان في غربة خارج الوطن متذكراً وطنه، ونجد الإنسان غريباً على قارعة الطرقات في وطنه... نجد الأصالة ونجد العولمة، الورد والشوك، الماضي والمستقبل... إنها مجموعة قصصية مميزة... تنبأ بإصدارات قادمة لأديب متمكن من أدوات القص الجميل.



9 789933 439309



هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ _ فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠